الفصل السادس

ماركس والاعتراف بمحمد

هل الإسلام مسئول عن سلوك المسلمين اليوم؟

obeikandl.com

ماركس والاعتراف بمحمد

عندما أراد بعض العلمانيين العرب النظر إلى النبي محمد ﷺ، حاولوا بداية النظر إليه من زاوية رابط الدم والعرق، أي من زاوية العروبة لكونه ينحدر من بني هاشم إحدى قبائل الجزيرة العربية، ولهذا لم يتردد ميشال عفلق، ورغم كونه مسيحيًا من الشام، في بداية تأسيسه لحركة "الإحياء العربي" التي عرفت لاحقًا بحزب "البعث" من القول: إذا كان محمد كل العرب، فليكن كل العرب محمد، وهي ليست سوى محاولة للربط المتأخر بين الواقع العربي والإسلامي، بغض النظر عن محاولات النجاح أو الفشل التي منيت بها حركة عفلق، لكن مقولته تلك، تعد في نظر الكثيرين اعترافًا مباشرًا لشخص محمد ﷺ الإنسان والنبي.

وإذا كانت محاولات القوميين العرب كتيار علماني، منصبة على إنضاج التقارب بين العرب والإسلام، من خلال إعادة التأكيد على ما قاله الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ إن العرب مادة الإسلام، فإن الأصناف الأخرى من التيارات العلمانية العربية لا تقيم وزنًا أو اعترافًا لذلك التصور، وتنوع هذه التيارات لا يمكن حصرها باليسار أو بالليبرالية، إنما يمكن تلمسها لدى بعض الأفراد المستقلين بذاتهم، والذين لم يحددوا بعد وجهتهم أو تيارهم. إن معركة العلمانية ينبغي ألا تكون مع الإسلام، أو مع رمزه الأعلى المتمثل بالنبي محمد ﷺ، وذلك ليس لأن لدى المسلمين بحورًا من الأدلة والبراهين تضعف وتوهن حجج خصومهم، بل لأن

النموذج الذي قدمه النبي ﷺ في عصره، يستحيل أن يعاد تقديمه في هذا العصر، فلا المرأة اليوم، هي المرأة ذاتها قبل الإسلام أو أثنائه، ولا الخصوم آنذاك هم ذاتهم اليوم.

إن ما فعله محمد ﷺ وابن عمه علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) من إلغاء وتفكيك لواقع الهيمنة الرأسمالية لتجار قريش ومرابيها، ربما هو الذي دفع بالفيلسوف والمفكر كارل ماركس إلى الاعتراف بواقع تلك النبوة من منطلق عقلي بحت، أدى إلى انتقال القبيلة العربية من مرحلة الجاهلية إلى مرحلة المجتمع والدولة.

غير أن بعض العلمانيين من ذوي النزعة الاستغرابية، يصرون على النظر إلى الإسلام من خلال رصد تحركات محمد ﷺ الإنسان وليس النبي، وعندما يقدمون جردًا بانتقاداتهم وتشريحهم، فإنهم يقدمونه على أساس أنه نبي، في محاولة منهم لتعريف الإسلام بالإرهاب والإرهاب بالإسلام، وليس بأي شيء آخر، وهذا ما أدى إلى التمايز العقلي الواضح، بين قراءة المستشرق الغربي لسيرة محمد، قراءة تاريخية معمقة، تختلف عن قراءة المستغربين العرب لسيرته على أساس سطحي ضحل، لهذا لم يعد مستغربًا ذلك الكم الهائل من التناقضات والاستنتاجات التي توصلوا إليها في قراءتهم المتسرعة، وبالتالي عدم صوابية أحكامهم المسبقة التي ينبع بعضها من ثأر تاريخي، أو مرض طائفي مزمن، لتتحول هذه المعركة بين هؤلاء المستغربين وبين محمد ﷺ كإنسان ونبي إلى معركة مفتوحة مع سائر المسلمين.

إن الاعتراف برسالة محمد ﷺ، كرسالة علم ومعرفة، لا يستدعي من بعضنا إشهار إسلامه والتسليم بأمره والتخلي عن رزمة أفكاره، لكنه على الأقل يستدعي الاعتراف بعد إعمال العقل وتدويره من كل الزوايا والاتجاهات، بأنه بريء كل البراءة، من أي أفعال تنسب إلى الإسلام اليوم، تحت مسميات "الجهاد

المقدس"، لطالما بقي الاجتهاد والتأويل السمة التي يتميز بها الإسلام عن غيره من الديانات الأخرى، فإن العمل في هذا الباب، يختلف عن العمل به قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان، نظرًا إلى اختلاف الظروف والعصور، أما إغلاقه اليوم، يعد أمرًا متعسرًا، ولا يبرر بأي حال من الأحوال، أن يكون الإسلام دينًا يحض على الإرهاب في ظل انقسام الإسلام كما العلمانية إلى تيارين متباينين لكل واحد منهما رؤيته الخاصة ومساره الإيديولوجي الذي ينطلق منه، فليس الإسلام الراديكالي، هو ذاته الإسلام المحافظ، لكن النظر إليهما نظرة شمولية رعناء سيؤدي إلى الخلط بين الإسلام والإرهاب، كما هو حاصل اليوم.

قبل الشروع في الاعتراف بمحمد ﷺ كرسالة علمية، لا بد من الاعتراف أولاً بالعمل الجاد على تقسيم الإسلام في محاولة لإنهاء الاعتباط الحاصل والخلط الفاجع بين عقول ملؤها الإيمان بالدين والدنيا، وعقول غزتها فكرة الصراع الأعمى.

ولا تختلف بأي حال من الأحوال، نظرة المستغربين إلى النبي لكونه تزوج الكثير من النساء، عن نظرة أصحاب العقول المهجوسة بفكرة الصراع بين الخير والشر والحق والباطل، بنظرة سوداوية وعدمية التفكير، فإذا كان محمد ﷺ قد تزوج تسع نساء، فإن النبي سليمان عليه السلام تزوج ألف امرأة وفق الكتاب المقدس، وإذا كان محمد ﷺ خاض عددًا من المعارك ضد خصومه، فإن سليمان وداود وموسى (عليهم السلام) خاضوا قبله أقوى المعارك ضد خصومهم التقليديين.

ما سبق ذكره يدعونا إلى إعادة التأكيد على الفصل الحقيقي بين الإسلام كسلوك ورسالة، كما يدعونا إلى إعادة التعريف بالإسلام وبمحمد ﷺ كنبي ورسالة، قبل شروع البعض في الاعتراف الذي من المؤكد سيكون متعسرًا إن لم يكن مستحيلاً.

هل الإسلام مسئول عن سلوك المسلمين اليوم؟

قبل الشروع في عملية تقسيم الإسلام، ثمة نص قرآني يؤكد أن سلوك الأفراد لا تتحمله الجماعات، ويتلخص هذا النص في سورة الزمر: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾، لعلنا نستنتج، أن الأفعال السلبية التي تمارسها فئة من الناس لا تتسحب ولا يندرج أثرها على الفئات الأخرى.

إن عملية التقسيم، لا تستهدف التطرق إلى المذاهب، فالتقسيم المراد، ليس تقسيمًا مذهبيًا، فيكفي ما لدينا حتى الآن من مذاهب بعضها ينحل من البعض الآخر، وبعضها يصارع الآخر، بل إن المراد، هو تقسيم الإسلام تقسيمًا نهائيًا إلى قسمين اثنين.

التقسيم الأول، وهو الإسلام المعاصر، الذي يأخذ بنص الآية السالفة، ولا ينظر كثيرًا إلى الماضي، إنما عينه على الحاضر، والإيمان بالحياة ومنافعها ولذائذها وحتى شهواتها التي لا تتعارض مع الأخلاق العملية والنظرية، كما يؤمن بالآخرة كدار قرار واستقرار أبدي، بحيث لا يتسرع في بلوغها على حساب مقارعة الحياة، ولا يضخم مباهجها وثمراتها، إلا بالقدر الذي يجعل سلوكه قويمًا وسليمًا، يتجنب إلحاق الأذى بالآخرين أو الإضرار بهم.

التقسيم الثاني، وهو إسلام الماضي، ليس المقصود بهذا المعنى، الإسلام السلفي، فإذا كان التوصيف الفعلي للسلفية، هو العودة إلى الماضي والتشدق بتراثه، فإن إسلام الماضي، لأشد رجعية من السلفية ذاتها، لأن أنصار الماضوية، ورغم محدودية انتشارهم

الجغرافي، فإنهم الأكثر غرقًا في محاكاة الماضي والعيش في جنباته، واستنهاض الولادة الأولى للإسلام، وما رافقها من صراع مرير دام في مرحلته الأولى، أكثر من أربعين عامًا هجرية، أي المرحلة التي شهدت عصر الخلافة الراشدية، وما تخللها من اغتيالات سياسية وحروب ردة، إلى جانب المؤامرات السياسية التي أعقبت وفاة النبي ﷺ، لذلك فإن العودة بالإسلام إلى الماضي الغابر، وكل ما تنطوي عليه تلك العودة من مخاطر سياسية هو الأساس الذي ينطلق منه الماضويون في تفعيل تصوراتهم ومعتقداتهم على الأرض، لذا تراهم يسبقون الحياة الآخرة، على الحياة الدنيا في سبيل بلوغ تلك العودة.

إن الانتقادات الشديدة التي يوجهها أنصار الديانات الأخرى، وخصوصًا أنصار الديانة المسيحية إلى الإسلام بعامة، وإلى النبي محمد ﷺ خاصة، هي في مجموعها انتقادات شخصية، أو مواقف شخصية، تفتقر إلى الأساس المنطقي لأي انتقاد، نتيجة لظروف سياسية داخلية، كما يفعل بعض مسيحيي الشرق احتجاجًا على أوضاعهم السياسية في معظم البلدان العربية، أو لظروف اجتماعية، كما هو حاصل الآن في الغرب، على خلفية التغلغل الإسلامي بين ظهرانيهم، وانعدام سبل الاندماج والانصهار بقيم مجتمعاتهم.

ورغم كونها انتقادات شخصية، إلا أنه لا يجب التهوين من شأنها، فهي تؤسس لولادة وعي جمعي يمتد تأثيره من جيل لآخر، الأمر الذي يكون رأيًا عامًا، له مواقفه المسبقة من الإسلام والمسلمين في كل زمان ومكان.

في المحصلة، تبقى مجرد انتقادات، لا نقول إنها تفتقر إلى الدقة أو الموضوعية في تحديد مراميها النهائية، لكنها تفتقر افتقارًا كاملاً إلى الأدوات المعرفية التي من شأنها أن تساعد على

فهم الإسلام فهمًا عميقًا، وبالتالي تحليله، وربما تقسيمه كما نفعل، إلى إسلامين، إسلام معتدل وآخر متشدد، يختلفان كل الاختلاف في الشكل والجوهر، ولو أن مفهومي التشدد والاعتدال، ينالان نصيبهما في السياسة أكثر منه في الإسلام. فمن باب الانتقادات تلك، لا بد من الدخول إلى تقسيم الإسلام، ليس تقسيمًا سياسيًا بين معتدل ومتشدد، ولا تقسيمًا مذهبيًا أو مثاليًا، بل تقسيمًا براغماتيًا، ينظر إلى الإسلام بعين الواقع والحقائق، لا بعين الخيال والأوهام، تقسيمًا يضع الحدود ويرسم الخطوط النهائية بين الماضي والحاضر، وذلك من خلال الدعوة إلى القطع الكامل بين زمانهما.

بغير ذلك التقسيم، ستستمر نظرة الآخر إلى الإسلام بعين من الريبة، كما ستستمر نظرة المسلم إلى إسلامه، بعين ملؤها الشك، والسؤال الذي يطرح نفسه تكرارًا، أي إسلام يقنع، وأي إسلام يختار؟.

من هنا، فإن الدعوة إلى التقسيم في أساسها، ما هي إلا إجابة عن السؤال التالي، هل الإسلام مسئول عن سلوك المسلمين اليوم، أم أن كل إنسان مسئول عن سلوكه لوحده، أيًا كان هذا السلوك؟.